مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

مجلة إسلامية ثقافية تصدر سنوياً مؤقتاً

السنة الأولى - العدد الأول

1395 - 1394 - 1393

1985 - 1984

تصدر عن كلية الدعوة الإسلامية

طرابلس - الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية

من عيون

الادب العربي في ليبيا

الأستاذ عبد الحميد عبد الله الهرامة

بين المقالة القيمة التي كتبها الأديب خليفة محمد التليسي في اكتوبر سنة 1952 م بعنوان «هل لدينا شعراء»(1) والملحوظات التي سجلها الاستاذ عمر التومي الشيباني في مارس 1984 م حول «مشاكل أدبنا المعاصر»(2) ما ينيف عن ثلاثين سنة والخيط الذي يجمعها هو الشكوى من عدم وجود أدب رفيع في هذه الجهة من الوطن العربي.

وواضح من قراءة المقالتين أن الدافع لها هو التطلع إلى أشواط متقدمة يندفع بها الأدب إلى آفاق جديدة، واسهامات أخرى أكثر ابداعًا وتألقًا. وهو ما عبر عنه التليسي حين قال في حق الشعراء الليبيين «والله يعلم أنني ماكتبت هذه الكلمة إلاّ وبنفسي شوق عارم لأن أراهم في الطليعة بين شعراء المشرق»(3). ولذا فلست آخذ على الكاتبين تلك المقدمات والنتائج التي أثاراها، ولست متجاهلاً تلك الملحوظة التي دونها التليسي في حاشية الطبعة المعادة للمقالة مشيرًا فيها إلى عدم اتصالها بالحركات الشعرية التي وجدت بعدها(4) ولكني أعتب على نقادنا الليبيين قلة التعريف بالقدرات الأدبية المبدعة، والتقصير في مجال الكشف عن محاسن ما يكتبه أدباؤنا ويلقي في زوايا النسيان ومجاهل المفقود(5) ذلك أن على الناقد في مثل بيئتنا أن يكشف عن تلك المحاسن بمعاناته الشخصية ويقدمها للقراء والدارسين لا أن يتعقب ما ينشر وأكثره غث لا يمثل الأدب العربي في هذه البلاد.

ولنذكرْ دائمًا أن الأدب ينمو بجرعات النقد وتتفتح أكمامه بكلمات الثناء والعرفان أو بالتوجيه والعناية والتصحيح ولا شيء أقسى على صاحبه من التجاهل وعدم المبالاة ولا أدفع لهمته من التشجيع والرعاية.

وانصراف النقاد عن أدب مواطنيهم ليست ظاهرة جديدة في البيئات النائية عن مراكز الثقافة الكبرى. فقد شكا ـ قديمًا ـ ابن بسام من انصراف الأندلسيين إلى المشرق «وأشعارهم السائرة مرمى القصية ومناخ الرذية»(6) أي أنها قريبة منهم يسيرة التناول ولكنهم لا يلتفتون إليها حتى لقد تمنى بعض شعرائهم أن يسير إلى المشرق لا لشيء إلاّ لتبدو محاسنه في نظر مواطنيه فقال: ـ

أنـــــا الشمسُ في جَوِّ العلوم منيرةٌ   ولكـنَّ عيبي أنَّ مطلعي الغـــــربُ
ولـو أنني من جـــانب الشرقِ طـــالـعٌ   لجدَّ على مـــا ضـــاع من ذكـرى النهبُ

وَلِي نحو أكناف العراق صبابةٌ ولا غرو أن يستوحش الكلف الصبُّ
فإن ينزل الرحمٰنُ ركبي بينهم فحينئذٍ يبدو التأسف والكربُ
لمن قائل أغفلته وهو حاضرٌ وأطلُبُ ما عنه تجيءُ به الكُتُبُ
هنالك يُدرىٰ أن للعبد قصةً وأن كساد العلم آفتُه القُربُ(7)

ثم هاهم النقاد اليوم يُنصفون الأدب العربي في الأندلس بل يجدون من المتعة في بعض روائعه ما قد لا يجدونه في شعر المشارقة أنفسهم. وشبيهٌ بتلك المتعة الأدبية ما وجدتُه في أثناء نماذج ممتازة من الشعر العربي الليبي لم يَعرفْ بعضُها سبيلَه إلى النشر قبل الآن، وهو ما يدفع إلى التساؤل عن سبب احتجاب هذه الروائع عن الظهور وكيف لا تسعى الصحف والمجلات إلى نشرها حين تسوِّد صفحاتها بنماذج شعرية ضعيفة تفتقر أحيانًا إلى أبسط مقومات الأدب المقبول؟.

ويبدو أن احتجابَ مثل تلك النّماذج الممتازة يعود إلى أسباب متعددة لعل أبرزها: ـ

أولاً: ضعف الصلة بين النقاد والشعراء نتيجة لقلة توفر الجواء الأدبية في صورة الملتقيات الثقافية العامة والمجالس الأدبية الخاصة، الأمر الذي جعل مقياس صلاحية النصوص مختلاً أمام الناشرين.

ثانيًا: إحجام بعض الممتازين من شعرائنا عن نشر نتاجهم، ربما بسبب التواضع أو الأنفة من الاشتهار بالشعر، أو أنهم يبخسون أشياءهم وبذٰلك ظلت أعمالهم حبيسة وجدانهم أو أسيرة كراسات مطوية في عالم النسيان لا يطلع عليها غير خواصهم الأدنين.

ثالثًا: عدم التشجيع على نشر الأعمال الممتازة، إما نتيجة لعدم القدرة على التمييز بين الغث والسمين، أو لوجود ظروف خاصة بالجهة الناشرة ولعل ذٰلك ما طوى ديوان الشاعر أبي القاسم خماج ـ مثلاً ـ سنوات طويلة في أدراج الجامعة وقد قدمه إليها يبتغي نشره.

إن ما تجدونه في هذه الحوصلة الشعرية هو أقربُ إلى الجمع والاستكشاف منه إلى الدراسة النقدية الدقيقة، فقد كان أول أهدافها توجيه أنظار القراء والنقاد إلى بعض عيون أدبنا العربي في هذه البيئة المعطاء، لعلها تبعث الهمم لاستخراج مثل هذه الكنوز إلى بساط الدرس والمعالجة، وتلقي بعيدًا عن بلادنا الحبيبة تهمة الجدب الأدبي والضحالة في ميدان الشعر.

ولكم كنت أتمنى أن أقدم عمل كل واحد من شعراء هذه الحوصلة مستقلاً عن الآخرين حتى يستوفي حقه من الدراسة والتعريف، وحتى نعرض أكبر قدر من نتاجه على صفحات هذه المجلة، لكن الحرص على عرض العدد الأكثر من الأسماء والتعرف على تجارب مختلفة كان أقوى من تقديم شخصية منفردة، وعسى أن أتمكن في المستقبل أو يتمكن غيري من متابعة البحث واستيفاء النقص.

ـ 1 ـ

صاحب النص الأول هو الاستاذ والكاتب الكبير خليفة محمد التليسي، وهو شخصية متعددة المناشط لكن ظهوره في عالم الشعر لم يواكب شهرته في ميادين الثقافة والفكر، وليس ذٰلك عائدًا إلى قصور في شاعرية الرجل، فقد كان في شبيبته من أفضل تلامذة مدرسة الديوان، ثم إنه حقق ما لم يحققه العقاد في الربط بين النظرية والتطبيق في أعماله الأدبية أما السبب في قلة اشتهار شعره فيعود إلى عدم نشر أكثره واقتصار تداوله بين الخاصة من أصدقائه(8).

نشر التليسي حتى الآن ثلاث قصائد ـ فيا أعلم ـ بمجلة الفكر التونسية ضمن سلسلة «أوراق قديمة» ولا أدري أيكفي هذا العنوان لتأريخ تلك القصائد، أم كان ينبغي على الشاعر أن يرفق كل قصيدة بتاريخها الدقيق حتى يتمكن النقاد من دراسة التطور الفني لأعماله الادبية؟

نترك الإجابة عن هذا السؤال لصاحب الشأن لنلقي الضوء على القصيدة الأولى وهي بعنوان «الوجوه» وتعد من طوال داليات الخفيف، إذ تقع في ثمانٍ وخمسين بيتًا ساكنة الروى، أتاح لها البحر بخطاه الوئيدة، وقابليته الخاصة للتدوير رحابة في استقبال التأملات الطويلة واستكمال وجوه الفكرة وتفصيلاتها، و إن كاد الشاعر أن يحيل تلك الرحابة إلى موضوع نثري مثقل بالتفاصيل لولا تمكن روح الفنان من نفسه وانتقاله إلى الفكرة التالية قبل أن تستثقل الأذن ما قبلها.

والقاريء لهذه القصيدة ولغيرها من قصائد التليسي يجده حريصًا على تطبيق ما يؤمن به من آرائه النقدية، فهو يستهلها بقوله: ـ

أنــــا أهوي الوجوه تحمــــل معنــــا ـــا وتبـــدو في نسجهـــا المنفـــردْ

ثم يفصل ما أجمل قائلاً: ـ

ذاك وجـــهٌ فيـــه ابتهـــالٌ وهـــذا لوعـــــةٌ في سعيرهَـــا يتوقَّـــدْ
ووجوهٌ حكيمــــــــةٌ غضَّنتهـــــــا محنـــــةُ الخلقِ وهو يشقى ويجهـــــدْ

هكذا يسترسل في تصوير الوجوه بحسب طبائعها وسماتها، فتلك بريئة هادئة، وهذه مشرقة مرحة، أو حزينة مكتئبة وغيرها الطاهرة والواجمة والوحشية والجميلة والحنون والثقيلة ثم اقرأ قوله: ـ

«الشاعر العظيم هو الذي يصور لك الحياة باسمة عابسة مشرقة متجهمة ضاحكة وباكية ساخرة وجادة..»(9) وانظر ماذا ترى؟

بل إن القاريء لكل ما نُشِرَ من شعر التليسي يجده متأملاً ومفكرًا يعرض على متلق أدبه فلسفته في الأدب والحياة، وهو ما عبر عنه نثرًا بقوله:

«إن الشاعر الكبير لابد له من فلسفة في الحياة، ولابد له من اتجاه معين يختلف فيه عمن سبقوه من الشعراء»(10) ولا يظنن ظان سطحي أن التليسي يدَّعي لنفسه العظمة والكبرياء من خلال مقارنة أدبه بنقده، فهو إنما يطبق مقاييس عامة وقر في نفسه أنها تعطي الشعر مكانته الأولى بين سائر الفنون الانسانية، فإذا وصل إلى منشوده من خلال تطبيق هذه المقاييس فلا لوم عليه في سعيه إلى الكمال.

القصيدة الثانية بعنوان «الجنية» وهي بسيطة البحر هائية القافية تقع في اثنين وخمسين بيتًا وتتميز كأختيها بالوحدة الموضوعية والترابط العضوي، وبالأسلوب المشوِّق الذي يغلق ثم يفسر، ويسرح بقارئه بعيدًا ثم يهديه إلى مقصوده في خاتمة القصيدة فيضطر معه إلى قراءة ثانية تطلعه على جواء جديدة لم تكن قد علقت بذهنه في سابقها:

لن أذرفَ الــدمع حُـزنًـا في مغـانيهـا أو أرفـــعَ الصوتَ شكوى من تجنِّيهـــا
ولن تـــراني نجومُ الليـــلِ ألعنُهـــا إنَّ اللعين فؤادٌ لا ينــــــاغيهــــــا
بــل سوف أهتفُ بــاسم طـالما طـربت لَــهُ الجوانحُ فـــانسـابَتْ أغـــانيهـــا

من هي؟ ربما كانت حبيبته! بل إنَّ ذٰلك يبدو مؤكدًا.. ولكن بقية السياق تجعلك تستبعد فكرة الحبيبة المألوفة: ـ

لا تقربوها ولا تأسوا لعاصفة ... ألوتْ بها فترامتْ في مهاويها
فتلك جنيةٌ تجري برغبتها ... هوجُ الرياح فتغلو في مراميها
مزالقُ الخطرِ الملعون نزوتها ... ولافحُ اللهب المسعور راعيها
كُمْهُرةٍ في فجاج الأرض سابحةٍ ... تسابق الريح لا تعنو لراعيها
تبدو لراكبها سمحاء وداعةً ... رهيفةً قد تُواتي من يواتيها
حتى إذا ما تراءتْ ثَمَّ مهلكةٌ ... ألقتْ به وتعالتْ فوقه تيها

تشد أنفاسك، وتحدق بعينيك عبر السطور مستغربًا ما تسمع، ثم يعود بك الخيال إلى العنوان فتربط بينه وبين ما تقرأ: ـ

باقاتُ شعريَ من أزهار روضتها ... كلُّ القصائد فَيضٌ من معانيها
لولا هواها لما أبدعت قافيةً ... ولا نظمتُ من الأشعار ساميها
ولا ركبتُ بُحورَ الشِّعر عاصيةً ... كمثل عصيانها شتّى دواهيها

.. تظل في حيرتك وفي ذهنك تفسيرات كثيرة حتى يعطيك الشاعر الجواب: ـ

وكيف أرسُمها رسمًا يحققها؟ ... وهي الطبيعة في أحلى مجاليها

وهنا أيضًا لا يخفى على المتتبع لكتابات التليسي أنه ينطق في شعره عن آرائه النقدية، فهذه الطبيعة المحبوبة الملهمة هي التي عبر عنها في نثره بقوله: ـ

«وحين نتحدث عن الطبيعة عند أيٍّ شاعر ينبغي أن نميز بين إحساسين، بين احساس الشاعر الذي يعبد الطبيعة ويقدسها، ويضرع إليها ويرى فيها هيكل عبادة وملجأ أمينًا يلوذ به من شرور الحياة وأوصابها، ويعثر فيه على ما افتقده في الحياة الواقعية من سلام واطمئنان، وبين احساس الشاعر الذي يروقه من الطبيعة ما يروق جميع الناس(11).

* * *

القصيدة الثالثة بعنوان «شموخ» ضَمَّن الشاعر أبياتها الخمسين حوارًا شائقًا، أحسن عرضه وأرفقه بموسيقية عذبة عن طريق التفعيلات المتشابهة في البحر الكامل، وتكرار الراءات بشكل ملحوظ في مجموع القصيدة.

وقد أحسن الشاعر عَنْوَنَةَ قصيدته، و إن فضل بعض قرائها أن يكون عنوانها «شموخ وانكسار» حتى يعبر عن حقيقتها تمامًا ونسي أن ذٰلك يلغي عنصر المفاجأة وهو من خصائص قصائد التليسي الثلاثة.

فهذه الكبرياء التي نجدها في قوله: ـ

لن تُـــــدركي قمي ولا أغواري ... إني أغيبُ بها عن الأبصـــــار
لن تـــدركي قمي المنيعـة وَبحَهـا ... كـــم أعجـــزتْ من كـــاسرٍ مغوار
رام الصعود سُدًى إلى آفـــاقِهـــا ... فطوى الجنـــاح وعـــادَ للأوكـــار

هذه الكبرياء تتحطم في ختام القصيدة أمام النظرة الفاحصة للحبيبة العطوف صاحبة الكلمة الأخيرة، تلك الكلمة التي انتهت بها نهايةً تدل على أنها أدرى من ذلك المحب المتعالي بخفايا نفسه:

للقلب شأنٌ غيـــرُ شأنِكَ في الهوى ... سلِّـــم لـــه تَسْلَـــمْ من الأكـــدار
خَلْفَ المسوح القـــاتماتِ طفولـــةٌ ... لم تخف عن حَـــدْسي وعن ابصـــاري
ستـــدك قيـــد العُمـــر عن أسرارهـــا ... وتهدُّ مـــــــا أعليت من أسوار
وتطـــالـــعُ الأفقَ الـــرحيبَ طليقـــةً ... مكشوفـــةً، مـــرفوعـــة الأسْتـــار
لا القمـــةُ الشمـــاءُ تعلو عنـــدهـــا ... كلاَّ ولا الأغوار بـــــــالأغوار

وقد بدا لي أن في البيتين التاسع عشر والعشرين خروج لا مُسَوِّغ له عن لهجة الشموخ التي لا يوجد ما يهزها حتى ذلك الحد.

والبيتان هما: ـ

الحسن يجذبني إليـــــه إذا نـــــأى ... عني وأفلت كـــــالنسيم الســـــاري
ولـــربما حطمت كـــل مهـــابتي ... في اثـــــره فعثرت أيّ عثـــــار

وتبقى هذه القصيدة برغم ذلك في ذروتها الشامخة بين الصفوة من مختارات القصائد العربية المعاصرة، بما تمتلكه من سعة الخيال، وجمال الأسلوب، وجلال الفكرة وطرافتها، ومن تشويق في طريقة عرضها.

والجديد الذي نقدمه في هذا العدد من نتاج خليفة التليسي قصيدة تقع في اثني عشر بيتًا بعنوان «حيرة»، تمثل تجربة الكهل وقد سألته عيون العذراء عن ذكرياته العاطفية في لغة استدراج وملاطفة: ـ

تنـــاديني أستـــاذهـــا في حنـــانٍ ... وفي صوتها كـــــلُّ ذلِّ الغواني
وتمضي وفي صـــــدرهـــــا حَيرة ... تســـــائلني عن عميق المعـــــاني
ومـــاذا عن الحبِّ مـــا خطبـــه ... ومـــا يفعـــل الحب في العنفوان
ومـــا كـــان لي في دروب الحيـــاة ... من الحب أو رائعـــــات الحسان
وهـــل مسَّني طـــائف من جنون ... فغـــادرني شاردًا عن كيـــاني
وكـــم لي في العمـــر من غـــزوة ... مظفـــرة بـــالمهـــا والقيـــان
فقلت أعـــابثهـــا قـــد بلوت ... وقـــاسيت قبـــل حلول الأوان
وجـــربت من رعشـــة في الفؤاد ... وعـــانيت من عُقلـــةٍ في اللســـان
وكـــم جمعت من زهور يـــدي ... وكـــم عصرت من كـــروم الجنـــان
وجئتِ وقـــد خَمَـــدت جُـــذوتي ... ولم تبق من فضلـــة في الـــدِنـــان
لغيري يـــا أختُ هـــذا الجمال ... ومـــا فـــاض عن نبعـــه من حنـــان
كفـــاني من سحـــره حيرة ... تســـائلني عن عميق المعـــاني

وحتى لا أثقل في الملاحظات، وفاءً بما أسلفته من أن الغرض من تدوين هذه الحوصلة هو الجمع ولفت الأنظار إلى الجديد وليس التحليل والنقد أقتصر على ملاحظتين: ـ

الأولى: أن المتحرج يرى في نشر مثل هذه الغزليات بمجلة للدعوة خروجًا عن المألوف. ونود أن نخفف عنه الحرج بأمرين أولهما أن الغزل كان يُلقى أمام الرسول ﷺ ويتطارحه الصحابة والفقهاء في المساجد، إذ هو معرض لفن القول وسحر البيان وليس وسيلة من وسائل التعبير عن الغرائز الجائعة. وثاني الأمرين أن الشعر من الفنون الجميلة التي تُقصد لذاتها بغض النظر عن قيمتها الموضوعية، فكما أن اللوحة الجميلة تثير اعجَاب من يشاهدها حتى إذا كانت لوحةً لجيفةٍ نتنة فكذٰلك هي القصائد الجياد في أي عصر وفي أي موضوع كُتبت تحتفظ بجاذبيتها وتأثيرها بغض النظر عن ذٰلك العصر وذلك الموضوع.

والملحوظة الثانية هي أن هذا الموضوع الذي تعالجه القصيدة جديد في تناوله ولكنه قديم في فكرته، وبرغم ذٰلك لا نجد أنفسنا مطمئنين للمساواة بين قول التليسي السابق وقول بشار:

بعثتْ إليَّ تسومُني بردَ الشبابِ وقد طويته
واللهِ ربِّ محمدٍ ما إن غدرتُ ولا نويته
إن الخليفة قد أبىٰ وإذا أبىٰ شيئًا أبيته
ومخضبٍ رخصِ البنانِ بكى عليَّ وما بكيته
ويشوقني بيت الحبيـ ـب إذا ادّكرت واين بيته
قام الخليفة دونه فصبرتُ عنه وما قليتُه

وذٰلك أنك تجد الوضوح والتسلسل وانضباط النفس في أبيات التليسي ولا تجدها في أبيات بشار برغم جمالها وتعبيرها الدقيق عن مراوغة المتردد الحذر.

ـ 2 ـ

صاحب النص الثاني هو الأديب عبد المولى البغدادي المتخصص في الأدب العربي الليبي والاستاذ بجامعة الفاتح.

عرف الناسُ شعر البغدادي عن طريق المجالس الخاصة والأمسيات الشعرية أكثر مما عرفوه عن طريق وسائل الإعلام، ولكن الكثيرين يذكرون تَصَدِّيه خلال الستينيات لبعْض المتنطعين بقصيدة نشرتها إحدى الصحف المحلية وقرَّضها معجب فقال: ـ

للّهِ دَرُّكَ عشتَ يا بغدادي
ولقد شفيت من اللئيم فؤادي

على أن نجم هذا الشاعر قد علا في ميدان الاخوانيات، وهو مجال أبدع فيه ما شاء، حتى بلغ الغاية في الظرف والدعابة. ومهما تكن مآخذ النقاد على هذا الغرض فإن شاعرنا قد أعطاه مكانة عليا في المجالس الأدبية الخاصة التي أصبح شعره حلاها وحديث ساعاتها.

وما بين أيدينا من شعره الآن يختلف عن تلك الجواء اللاهية والجلسات المرحة. إنها إحدى روائعه الطويلة والمنقحة. قصيدة ميمية تقع في ثلاث وخمسين بيتًا جعلها الشاعر «تأملات في أحداث لبنان» وانطلق فيها معبرًا عن مرارة الشعور بالهزيمة، والعجز عن انقاذ لبنان، وعن الفواجع التي حلت بهذا البلد الصغير ففجرت الحقد في أعماق الانسان العربي المسلم، فراح يعلن غضبه على كل المتاجرين بمصير أمته وكرامتها: ـ

صرحُ لبنانَ قد تهدَّم باسمي ... لا تُدينوا بهدمِهِ أيَّ خَصْم
أنا حطمتُه ولم أكُ أدري ... أن أنقاضه دمائي ولحمي
سكنت ثورتي ومات شعوري ... وانتهت قصتي نهايةَ شؤم
واعترتني زوابعُ مهلكاتٌ ... زلزلتْ صبريَ العنيدَ وعَزْمي
جُرحُ لبنانَ قد أصاب كياني ... فهو في قلبي المضرَّج يُدْمي
فأنا الخصمُ والمدافعُ عنها ... وكلا الجانبين أهلي وقومي
والضحايا فواجعُ مائلاتٌ ... خلَّفتْ في الدروب أشباحَ يُتْم
إيه لبنانُ والخطوب نعال ... ضربت إخوتي بأبناء عمّي
كنتُ لولا طبول حربكِ وهمًا ... ركَّبوا في خياله ألفَ وهم
كنتُ حُلمًا محلِّقًا في سرابٍ ... تتهادى أطيافه كلَّ يوم
كنت لا شيء غير حارس قصر ... يَخدُمُ السيدَ العظيمَ بحزم
كنتُ لا شيء غير عبد حقيرٍ ... أحرسُ مثل سيفه وأصمّ
كنتُ أحمي جناب من كان ظنّي ... أنه جاء كي يذودَ ويحمي
إيه لبنانُ كم هتكت حجابًا ... كان يُخفي وراءه كلَّ جرم
كان لولاك ما تضاءل عرشٌ ... واستحال الزعيم كتلة زَعْم
الرئاساتُ يا لها من غَبَاء ... إنها كالدمى بلحم وشحم
كشفتها استغاثةٌ منك عجلى ... فإذا الكلّ بين صم وبكم
توِّجي ساسة العروبة عارًا ... والْعني من سراتهم كلَّ شهم
فجرّى حِقْدنا الدفينَ عليهم ... حِمَمًا تصرعُ الطغاة بِحَسْم
إنّه حقدُ ألفِ عامٍ تَوَلَّتْ ... لم أجدْ من ولائهم غيْرَ ظلم
زلزلي الأرضَ تحتهم واقصفيهم ... وانزعي من صدورهم كلَّ حُلم
جرِّديهم من المُنَى فهي تحوي ... ما حوى الغدرُ من فجور ولؤم
واعلني ثورةَ الشُّعوب عليهم ... ليُلاقي مصيره كلَّ قزم
ليس فيهم من الطواغيت طاغٍ ... لم يصبْ قلبكِ الجريحَ بسهم
كلُّهم عاثَ في رُباك فسادًا ... فسواءٌ سميت أمْ لمْ تُسمّي
سقط البرقعُ المزيفُ عنهم ... فبدا القبحُ صارخًا دون كَتْم
حَاربُوا بعضهم هناك ببعض ... لا لدعمٍ أتوا ولكن لهدم
كلُّهم قاتلٌ وكل قتيلٌ ... ألغنم قتالهم أم لغرم؟

بـــأسهـــم بينهـــم شديـــدٌ عنيـــدٌ ... ومـــــع الآخـــــرين صُنّـــاع سلم
محنتي أنني وكلتُ إليهـــــــــــم ... أمـــــر حـــــريتي وتـــــدبير حكمي
فـــــاحتواني من المهـــــانـــــة طيف ... جـــال في خـــاطـــري وسابق فهمي
فخلعتُ الأوهـــــام عني بعيـــــدًا ... وتنكبتُ صحوتي بعـــــــد نومي

* * *

إيـــــه لبنـــــانُ مـــــا لليلكِ ساجٍ ... حـــائـــر النجـــم مظلـــم مـــدلهمّ
جفَّ في حُضنِكِ الصنوبـــرُ ذعـــرًا ... واعتراه الـــــردى بعـــــزل وفطـــــم
واستحـــالت كـــرومُ صيـــدا هشيمًـــا ... يتهـــاوى من أجْلِهـــا كـــلُّ كـــرم
فـــــاسكبي روحكِ الحنون عليـــــــه ... كـــانسكـــاب الـــردّي عليك وضمّي
أيُّ ذنبٍ جنـــــــــــاه رائقُ وردٍ ... كـــان كـــالسحـــر نـــافـــذ العطـــر جمّ
مـــالـــه يُطبق الغُصون على الـــزهـــ ... ـــر ليبقى مُخَبَّـــــــــــأً دون شمّ
حكمـــةُ الـــدهـــر أن تخوضى صراعًـــا ... ظـــالمًـــا في دُجَى ليـــالي عُنْـــم
يـــــالصرح أكفَّـــــه ممسكـــــات ... بجبـــــــــال على الشواطيء شُمِّ
يحضن الموجَ سَفْحُهـــــا فهو يُمْضي ... بهجـــة العمـــــر في عنـــاق ولثم
والمغـــارات في ربـــاهـــا كهوف ... حفلت بـــالأصيـــل من كـــل طعم
يـــا اشتيـــاق الحب يـــا ملهـــم النّظْـ ... ـمِ إذا جـــادت النفوس بنظـــم
عـــلّـــق الحسن في جـــبـــينك نجمًا ... يتحـــــدى بحسنـــــه كـــلَّ نجم
أنت حـــــررتني وأطلقت قيـــــدي ... فـــأنـــرت الـــدُّجَىٰ وبـــدد غيْمي
وكســـا الصفْو جـــانبًـــا من حيـــاتي ... ونحررتُ من عنـــــــالي وسُقمي

* * *

تلك لبنـــان كـــم تنطـــع فيهـــا ... جـــــامحٌ لا يلين إلا بشكـــــم
وهي كـــالطود عـــزةً وشموخًـــا ... خصمهـــــا لا يئُوب من غير قصم
كلّما اصطكّتْ المخاذيفُ فيهـــــــا ... بهوى الغـــادرين عُـــربٍ وعجـــمِ
أطلقت من جـــرابها سيفَ حـــرٍّ ... ثـــائـــرٍ يـــرفض الحيـــاة بضيم
سوف تبقى منـــــارةً لحيـــــاتي ... رغـم كيـد العـدا جميعًـا ورغمى
فهلمّي لبنـــان نشعـــل نـــارًا ... تحرق الظلم في حمانـــــــا هلمّي

النص الثالث لشاعر مبدع من شعرائنا الشباب هو أبو القاسم خماج، الذي تخرج في أحد الأقسام العلمية

التجريبية وتخصص في التربية، وبرع في الشعر، فتنازعته هذه المجالات الثلاثة لكنه أعلن انحيازه إلى جانب الأدب في قوله: ـ

أنـــا لا أريـــد من النبـــات دراسةً ... لكيـــانـــه المستور لا تُستلـــزمُ
أنـــا لا أحب من النبـــات وغيره ... إلاَّ خلاصـــةَ مـــا يشـــمُّ ويُلثم
أنـــا طـــائـــرٌ لا يَسْتبـــدُّ بـــه سوى ... رقصُ الـــغصـــونِ الخضر إذ يترنم
فـــإذا سعيتُ إلى الـــريـــاضِ فـــإنما ... ليميـــلَ بي غصنٌ ويضحكَ بُـــرْعُـــمُ

والشعر عند أبي القاسم خماج يعتمد على عنصرين بارزين هما الخيال الواسع والموسيقى العذبة، إنه ينساب من فيه أنغامًا متلاحقة منسجمة لا يملك معها السامع إلاَّ أن يعبِّر عن أعجابه الشديد دون أن يعرف تمامًا ما هو العنصر الذي شده في شعره أكثر من غيره.

ولعل ذلك عائد إلى أن الشاعر أراد أن يمتع نفسه بشعره قبل أن يفكر في الآخرين فكان ترنيمه تعبيرًا صادقًا عن أحاسيسه ومشاعره: ـ

أنغـــامُ تُـــرقِصُ إحســـاسي ... والنـــايُ بكفِّي يُغـــربها
ويكـــادُ يكـــادُ يلامسُهـــا ... ويحينُ يحينُ تنـــاغيهـــا
لكنَّ تَقَطُّـــعَ أنفـــاسي ... لا يلبثُ حتى يمحوهـــا

لقد أجاد الشاعر في تنويع مصادر الموسيقى في قصائده، تجدها في تكرار الكلمات، وفي الاعتماد على الأحرف الموسيقية، وفي استخدام الأبحر القصيرة وفي التفعيلات المتشابهة، والتقسيم داخل الأبحر الطويلة كما تجدها في تلك الموسيقى الداخلية التي تحس بها ولا تعرف مصدرها.

لاحظ هذه الدفوف المدوية التي استطاع الشاعر أن يستميل بها آذان السامعين عند استخدامه الجيد لحرف الدال المضاعف في قوله: ـ

دَمي ينســـابُ أنغـــامًـــا ... وراء الكَونِ تمتـــدُّ
وفي غيبوبـــة الأحلامِ ... لي جـــزرٌ ولي مـــدُّ
فهـــل لي في غُصون الورد ... مـــا أمَّلتُ يـــا وردُ
وهـــل لي في حنـــايـــا الصـــدر ... شيءٌ اسمُـــهُ الودُّ

غير أن الموسيقى ليست كلَّ بضاعة الشاعر، فلم يكن الخيال الرائع في شعره شطحاتٍ في اللامعقول، بل إن الفكرة تأخذ من اهتمامه قدرًا كبيرًا ولكنها تمتزج في خضم العواطف الجياشة والتنغيم الموسيقي والتصوير الفني لتكون معها أسلوب هذا الشاعر في الرسم بالكلمات: ـ

جبـــالُ الصَّبر أبْنيهـــا ... بـــأعصـــابي وتَنْهـــدُ

سُعـــــــارُ الشّوق مَحمومٌ وأفقُ الوَصـــلِ مُـــزبــدُ
ولـلسَّـــاعي وراءَ النَّخـــلِ كـــانُ اللّـنْـــعُ والشّهْــدُ
أريـــدُ «نعـــمْ» وأخشَـــاهَـــا كَمَـــا أخْشَـــاكَ يـــا صَـــدُّ
ولا أدْري لأيِّ الجمـــــــرِ تَسْخُو بـــالصَّبَـــا نَجْــدُ
ومَـــا بَينَ الـــرَّجَـــا واليـــأسِ ضِغْنَـــا أيُّهَـــا القَصْـــدُ

ونقع خلال رحلتنا في العالم الشعري لأبي القاسم خماج على قطعة تقودنا إلى رحابه الإنسانية حيث يبدو البحث عن المعاني في المقام الأول، ولكنَّ بقية العناصر لا تتخلف عن اهتمام الشاعر ولا تسقط من حسبانه: ـ

الشعـــر يـــرفـــرف في صـــدري كـــالطـــائـــر لا يـــدري عُشَّـــهْ
ومعـــانٍ تـــزحف أمواجًـــا أمواجًـــا في وادي الـــدهشـــهْ
لا توجـــد عنـــدي أحـــرُفهـــا فتموت على شفتي رِعْشـــــهْ

* * *

آهِ لو أمْلكُ في صَـــــدري عُشًـــا لو أمْلك أنفَـــاسي
مـــا ظـــلَّ الطـــائـــرُ مَنْفيًـــا في دَرْب متـــاهَـــاتٍ قـــاسِ
أو ظـــلَّ النـــأيُ بلا رُوحٍ تمتـــدُّ خلالَ الإحْسَـــاسِ
وظللتُ بلا وجـــــهٍ حتى أتبيَّن وجهيَ في النَّـــاسِ

فإذا شدَّتك الموسيقى في هذه الأبيات، وذهب بك الخيال بعيدًا فأعد قراءة البيت الأخير لتجد الفكرة في خير أمثلتها عمقًا وطرافة.

وسنخطو معًا خطوة أخرى نحو الفكرة في شعر خماج عندما نستعرض جزءًا من قصيدة «الانسان» التي يقول مطلعها:

ظلمـــــةُ الليـــــلِ حَواليَّ كَثيفَـــــهْ
وأنـــــــــا أمشِي وأمشي
بيـــــدي حُلْـــــمُ سِرَاج
والمتـــاهَـــاتُ.. المتـــاهـــاتُ مخيفَـــهْ
وأنـــــا داخـــــلَ نَفْسي
كـــأنَـــا بينَ فِجَـــاجْ

ولم يكن أبو القاسم خماج في عالمه الشعري بعيدًا عن المحنة التي تعيشها أمته العربية المسلمة، فقد تأثر بها وعبر عنها، بل إنه سَخِرَ في إحدى قصائده من ذلك التعبير الكلامي الذي لا جدوى من ورائه فقال: ـ

لن تُصبحَ يا شعري مَدْفَعْ ... مَهْمَا غنَّيْتْ
لن تُبنَى دارٌ أو مصنعْ ... من ألفي بيتْ
جَنَّدْنَا كلَّ دفاترنا
ووقفنا فوق منابرنا ... نحن الشعراء
ونزعنا خَتْمَ حناجرنا
وسكبنا خمرَ مشاعرنا ... وشربنا نخب الأعداء

أما النص الذي نختاره كاملاً في هذه الحوصلة فهو قصيدة نونية نسجها الشاعر وهو مغترب بالولايات المتحدة سنة 1973 من أجل الدراسة فعبر فيها عن إحساس المغترب في أيام العيد: ـ

« عيد مغترب »

لم أنتبهْ للعيد حتى عيَّدُوا ... وأتى من الأصحاب من هَنَّاني
وأتى مع البشرى نسيمٌ ساخنٌ ... ينسل من سمعي إلى وجداني
ليذيب أحشائي ويحمل بعضها ... في سيره زحفًا على أجفاني
قلبت معنى العيد بين أصابعي ... وعصرتُ ما بالشكِّ من ايمان
وفتحت أبواب الخزائن كلِّها ... ـ لا أدعي أني بلا أحزان ـ
عَلِّي أرى ما قد يلوح سعادةً ... في أعين البادين من خلاَّني
أيام كنا العيدَ.. كنا عمرَه ... معناه.. كنا سِرَّه الرُّوحاني
فوجدت أعيادي القديمةَ كلَّها ... مشنوقةً في ساحة النسيان
ووجدت أتعس زهرة بريئة ... في صمتها ترنو إلى الرحمٰن
كالروح عاكفة على أحلامها: ... (سأعود في يوم إلى جثماني!)

* * *

يا عيدَ أحبابي جُعلتَ مباركًا ... ومذكرًا بالحبِّ في الإنسان
عفوًا نسيتك.. إنني في عالم ... لجميع ما في عالمي أنساني
لم أنتبه والكون كان بجانبي ... أنَّى أعى وأنا بكون ثان
هٰذي السماء لها هلال مظلم ... ونجومها ركب من العميان
والوقت مسروق الضمير وانه ... لم يدر ما أهلي وما أوطاني
أهلي ومن أحببت ملء خواطري ... وخواطري بحر بلا شطئان

أمتــد في طول الظنون وعــرضهــا ويح أتســاع الكون قــد أضنــاني
يــاذاهلين أشابكـــم مـــا شابني أم شابني مـــا ليس في الحسبـــان ؟
منهوكـــة نفسي حيـــال ذهولها وذهولها دنيـــــــا بلا ألوان
يـــا واهب الأشيـــاء سرّ وجودهـــا ومؤلف الأرواح في الأبـــــــدان
من لي بـــألوان.. بشكـــل معـــالمي لو أمهلتني ريشـــــة الفنـــــان
عفوًا إذا شاب الغموض مشـــاعـــري هـــذا هو الـــداء الـــذي أعيـــاني

— 4 —

الأنموذج الرابع لشاب باحث وأديب طموح تُنتظر له في دنيا الأدب مكانة مرموقة بلا مبالغة. فهو الأصغر سنًا بين كل الأسماء الواردة في هذه الحوصلة والأجرأ على نشر نتاجه الأدبي، ولكن انصرافه إلى البحث التاريخي كان منافسًا مؤثرًا على ابداعه الأدبي. ذلكم هو الشاعر والباحث عمار جحيدر.

نشر عمار بعض أعماله الشعرية في مجلة «الفصول الأربعة» فكشف بذلك عن شاعر متطور يملك أسلوبًا شائقًا متنقلاً بين التعجب والتساؤل، والإخبار والرجاء، في شعر خالٍ من الرتابة والسرد، مفهم بالعواطف والأخيلة الخصبة مع تفاوت واضح بين تلك الأعمال نتيجة لاطراد ظاهرة التطور الإيجابي : —

دقت الســـاعـــة قُــرْبَ الموعـــد
فـــاضطـــراب الشوق يبـــدو في يـــدي
كـــم هفت نحو الـــرِّتـــاج الموصَـــدِ وَهَفَـــا سَمعيُ لوقْـــعِ الأرجـــلِ
ساعـــةُ الحائطِ.. مـــا بـــال الثواني؟
تقف الآن.. كـــدهـــر في الـــزَّمـــانِ
وعلى عقـــاربهـــا تحنو الأمـــاني ألأني في انتظـــــارِ المقبـــــل؟!

ونقدم في هذا الحوصلة أروع ما كتب عمار حتى الآن، قصيدة لم تنشر من قبل، تقع في ثلاثة وستين بيتًا وتتميز برصانة الاسلوب ورقة العواطف، تلك العواطف التي أضفتها طبيعة الموضوع وقربه من نفس الشاعر، فهي رسالة كتبها الشاعر إلى ولده «نزار» في ربيعه الثالث سنة 1983 م.

يبدأها وكأنه يبدأ قصة محببة إلى نفسه : —

مـــا كُنْتُ أعـــرف فلـــذة الكَبـــدِ حتى أتيت إليَّ يـــــا ولـــــدي
ورأيتُ فيك طفولتي ألقـــــــــا ينـــــداحُ من أبوين في جَسَـــدِ

وتستوقفك بعض الألفاظ الغريبة عن لغة العصر، يجمع بها الشاعر بين جزالة القديم ورقة الجديد؛ فلا

تحس بخطورة التقعر ولا بخشونة الغرابة لأن الشاعر متمكن من لغته محسن لاستخدام ألفاظه قادر على استجلاب اللفظ المناسب من قاموسه اللغوي الرحب.

وفي مقطع أخر من مقاطع هذه القصيدة الطويلة يلفت الشاعر انتباهنا إلى موازنة بين عنايته بابنه وعنايته بكتبه وهما يشتركان في حبه واهتمامه: ـ

يــا مَعْقِــدَ الآمــالِ يــا وَلَــدِي ... يــا فُــرصــةً في العمــر لم تــرِدِ
أفـــديك أن تُمسي على مَضَضٍ ... أو تشتكي شَكْوى إلى أحــــدِ
ولقـــد يكونُ المجدُ من دأبي ... لكنَّ مجدك أوطـــدُ العُمَـــد
لن يبلُـــغ التنقيحُ من كُتبي ... مــا يبلُـغُ التهذيبُ من ولــدي
وكلاكما مـــن صُــلب تجربتي ... وأعــزُ مــا أُبقيــهِ في بلــدي
فــانظــر من الأيــام مُتَّسعًــا ... يَسَــعُ الطُّمُوحَ إلى ذرًا صُعُــدِ!

ويعبِّر الشاعر عن استمرار حياة الآباء في أشخاص أبنائهم، وتجدد تجاربهم من خلال تجارب أولادهم فيقول: ـ

سأعيـــدُ رسمَ طفولتي قُـــدُمًـــا ... في مُلْتقى عينيكَ بــــالأمــــدِ
وأذيبُ في ألوانها قُـــزَحًـــا ... مُتلألئـــا كـــالشمسِ في رأد
وأكَسِّـــرُ الأغلال عن زمني ... وأمُـــدُّ من أمسي صَبـــاح غــدي
وتعـــاود التحليقَ أجنحتي ... وتطيـــرُ أحلامي.. بلا عـــدد
في راحـــتيك طــفـولتي بُــعثتْ ... للجنـــةِ الخضراء يـــا ولــدي
ولسوف تكبُـــرُ في الضحى رجلاً ... وأراك مِـــلءَ بصيرتي وبــــدي
وإخـــال هـــذا الجسمَ مُتشحًـــا ... بشبـــابكَ الـــرَّيّـــان في رَغَـــد
وتـــزورني الأطيـــاف تُسكـــرني ... بنجـــاحك المأمول يـــا سنـــدي
ونخط في ألواح قصتنــــــــا ... أنشودة أخـــــرى من الولــــد

ثم يخرج الشاعر من محيطه الأسري إلى عالم الأطفال في أمتنا المجيدة، يخاطبهم من خلال أمته ويخاطب أمته من خلالهم فتكون في ذلك فرصة للتعبير عن واقع الهزيمة الذي نعيشه، وعن ذلك الأمل الذي يحيا في صدر هذه الأمة متمثلاً في تحقيق النصر واسترجاع الكرامة:

أطفـــالنـــا يـــا فيض أغنيـــة ... من مقطـــع في اللحن منفـــرد
أطفـــالنـــا عفوًا ومعـــذرة ... لبريئـــة ولـــدت ولم تئـــد
أطفـــالنـــا هـــاتوا أيـــاديكـــم ... يتفـــاءل الاحســـاس في خلـــدي

لازال في الآفـــــــاق مُنطلقٌ	للطـــائـــر الغـــرِّيـــد في كبـــدي
لازال في أحشـــــائِنـــــا رمقٌ	قـــــــــد يُسعِفُ المنهوكَ من أود
لازال في أنفـــــاسِنـــــا نَفَسٌ	مُتَشَبِّثٌ بـــــالـــــروح في الجسد
طُوبى لجيـــل النَّصر في غـــدكـــم	ولأمـــــةٍ تحيـــا إلى الأبـــــد
سأمـــــد في آفـــاقكـــم بصري	فـــالمجدُ للأطفـــال يـــا ولـــدي

* * *

وفي الختام نأمل أن يظل الباب مفتوحًا في هذه المجلة لتقديم نماذج أخرى من أدبنا العربي الليبي، ولعل ذلك سيكون أكثر امكانًا بتعاون الكتاب والشعراء، فلهم جزيل الشكر ما وافونا بنتاجهم أو بمقتنياتهم من روائع هذا الأدب.

* * *

هوامش

1 ـ جريدة الليبي 6، 13، 20 اكتوبر 1952 م.

2 ـ مجلة الإخاء مارس 1984 م.

3 ـ رحلة عبر الكلمات، خليفه التليسي، طرابلس 1974 م صـ37.

4 ـ المصدر نفسه صـ37.

5 ـ هذا العتاب لا يعني أن نقادنا لم يقدموا شيئًا فلا يمكننا تجاهل الجهود النقدية التي قاموا بها متمثلة في جمع ودراسة شعر بعض الشخصيات المشهورة والمغمورة، لكنها لم تواكب الحياة الأدبية المعاصرة ربما بدعوى أن المعاصرة حجاب كما يقولون.

6 ـ الذخيرة 1 / 12.

7 ـ جذرة المقتبس صـ292.

8 ـ يعد الباحث مصطفى جحيدر رسالة ماجستير حول شخصية التليسي وأدبه نأمل أن تقدم الجديد والطريف عن حياة الرجل وآثاره.

9 ـ رحلة عبر الكلمات صـ42.

10 ـ المصدر نفسه صـ41.

11 ـ رفيق شاعر الوطن، خليفه التليسي، الطبعة الثالثة 1976 م صـ138.

12 ـ الاعداد 20، 23 سنة 1982 م ومارس 1984 م.